

مَنْ هُوَ الْعَارِفُ بِاللّٰهِ

أُخِي :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . ليعلم أخى نظرا واعتقادا ، وفهما وإدراكا ، وذوقا ووجدانا ، وشعورا وإحساسا أن كل ما هو كائن وسيكون ، وكل ما هو مقدر ومبرم ، وكل ما يصيب الإنسان من خير أو شر هو من الله وحده العليم الخبير . الحكم العدل اللطيف البصير . وكل ما هو من الله فهو نعمة وفضل ، ورحمة وعدل ولذلك يتعذر على الإنسان الإحصاء للنعم والأفضال . قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تُعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ من هنا نعلم أن النتيجة التى يخلص بها المؤمن هى الحمد والثناء على الله والشكر له ما دامت الأنفاس . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . قال تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ﴾ فالشكور هو الله . والشكور من عباده هو الذى يشئ على ربه فى جميع صفات ربوبيته ، ويشعر من أعماق قلبه أن كل ما هو منه سبحانه نعمة وفضل ، ورحمة وعدل . فلا فرق عنده بين المنع والعطاء مادام ذلك حكم القضاء . ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ وقد علمت أخى أن النفس بمقتضى طبيعتها تنفر من المنع ، وتضيق به . فمن نظر إلى الكائن بعين الله ، وإلى الواقع بعدل الله وحكمته ؛ وفقه الله ورعاه ، ونصره على طبيعة النفس وجبلتها ؛ فلا يكون منه إلا الرضا والتسليم : قال تعالى : ﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ ؛ ومن علامات النصر وثبات القدم : الشكر على الضراء كما هو الشأن فى شكر النفس على السراء . وقد علمت أن الأصل فى الشكر والكفر ضعف الإنسان قال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا ﴾ والإنسان بمقتضى إيمانه بخالقه يرى نفسه أضعف من الناموسة وأتفه شأنًا من جناحها حيث لا فرق عنده بين قدميه القويتين وساعديه المتينتين ، وبين سواعد الناموسة وجناحيها لما يعلم ويؤمن بقدرة الله وقوته المحركة ؛ ولذا يشكر الله على الحركة التى عليها قوام حياته ووجوده . فلا

حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . أما الكافر فإنه لشدة شعوره بضعفه يلجأ إلى الأسباب التي يحسبها مقوية له ، ولذلك يتهاون على كل ما يراه ويتصوره قوة أو أسباباً إلى قوة ، وذلك في عالم المادة التي يتصورها قوة أو أسباباً إليها ، ومن ذلك نعلم سر تعلق الإنسان بالدنيا حيث شعوره بالضعف يجعله ونحمله على تلمس الأسباب ؛ وقد نسي هذا المسكين أن الكائنات جميعها والمخلوقات كلها ضعيفة مثله فقيرة ، فهي صنوه في أشد الحاجة إلى من يقويها ويقيها . فكيف ينبغي للضعيف تقوية الضعيف ؟! فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم : قال تعالى : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ نسوا الله .. أغفلوا وتجاهلوا ربوبيته وألوهيته اشتغالاً منهم بصفات أنفسهم وتعلقاً بالكائنات المخلوقة مثلهم . فأنسأهم أنفسهم ضعفها وفقرها ، وحاجتها إلى رها وخالفها حالاً ومالاً ، عاجلاً وآجلاً ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الذين خرجوا عن الحقيقة ، وتجاهلوا الحق المنزل ، فاسترسلوا مع أنفسهم في شهواتها وحظوظها وكل ما يحقق فسقها وكفرها والعياذ بالله ؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله .

وقد علمت أخى أن شعور الإنسان بضعفه هو أس الرحمة إذا كان الإيمان بالله واليوم الآخر . وهو أس البلاء والفساد إذا لم يكن الإيمان بالله واليوم الآخر . فانظر أخى إلى الرجل يجمع من الدنيا ما يكفيه مائة عام . وله من الجاه العريض مالا يلحقه فيه أحد . ومع كل هذا فالشعور بالضعف لا يتجاوز به والإحساس بالنقص لا يتعداه شأنه في الضعف شأن من لا يملك قوت يوم وليلة . وشأن معدوم الجاه بين الخلق ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾ إن المؤمن الحق الصادق الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر — إنه بمقتضى شعوره بضعفه وإحساسه بنقصه — لا ينفك عن ملازمة باب الله القوى لما يعلم ويوقن أن الكائنات كلها مثله ضعيفة ودونه شأناً عند الله الذى خلقه وكرمه ، وجعله خليفة فى الأرض ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ وقد علمت أن المؤمن الحق الصادق الإيمان بالله يرى أثر القدرة فى المقدور ، وقوة الصانع فى المصنوع ؛ فلا المقدور يصرفه عن مشاهدة القادر ومعاينة الحق ، ولا المصنوع يشغله عن جلال وجمال الصانع المبدع . ولذا فهو مع المكون لاعم الكائنات ، ومع الخالق لاعم المخلوقات ، ولما كانت صفاته البشرية كله مخلوقة ؛ وكلها

ضعيفة محدودة : فإنه يتهرب من مشاهدة نفسه ومعاينة صفاته يلجأ إلى ربه وخالفه يستعين به على قهر نفسه وطرد شيطانه بكل الوسائل والحيل ، حتى يلقي الله عز وجل مجرداً من حوله وقوته إلى حول الله وقوته سبحانه وتعالى . فالحمد لله . والشكر له .

انظر أخى إلى الإنسان كيف يستعين بجوارحه على تنفيذ مراد قلبه وإرادة نفسه : يسعى ويبطش ، ويسمع ويبصر ، ويشم وينطق ليصل بكل هذه الحركات إلى إبرام ما فى نفسه ؛ حيث الجوارح كلها جنود القلب وأعوانه . وكذلك شأن المؤمن الحق الصادق الإيمان بالله فى استخدام إرادته القلبية ، وقدرته العقلية بمقتضى إرادة الله وأمره . ومن هنا نعلم مدى قول الرسول ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات . وإنما لكل امرئ ما نوى » حيث العمل المعتبر شرعاً ودينياً عمل القلب وإرادة النفس لا أعمال الجوارح مهما كان شأنها . وقد علمت أخى أن صلة العبد بربه صلة معان ، ومعرفة معرفة صفات ، وشهوده شهود آثار وأحكام ، ووقائع وأحداث . فإنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فإذا قيل لك إن فلاناً هذا عارف بالله أو من أوليائه فاعلم بأن المراد بهذا الوصف : العلم بالله فيما ذكر عن نفسه سبحانه علم يقين وحق يقين ، وعين يقين ؛ بحيث يكون المعلوم مصدر حياة العارف بالله فى جميع شئونه ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ فالعارف بالله يشعر بآثار الربوبية ، وقدرة الله العلى الكبير فى ديبب التمل الصغير . كما يشعر بها فى سير للكواكب وشروق الشمس وغروبها . كما يشعر بها فى إيجاد المعدوم ، وإعدام الموجود وفى الإغراق بالماء ، والإحراق بالنار . فوالله إن العارف بالله يلمس آثار قدرة الله وصفات ربوبيته متحققاً متأكداً ، قاطعاً ، جازماً ، مؤمناً موقناً كما هو شأنى وشأنك فى التحقق والتأكد ، واللمس والقطع فى عمل الماء وعمل النار حيث لاجدال فى ذلك . فبالماء والنار حياة البشر ، وبهما هلاكه وخسارته . فتدبر ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ .

أخى :

إن العارف بالله هو مثلك إنسان يأكل ويشرب ، وينام ، ويسعى ، ويعمل ، يجرد ويكافح ويفرح ويحزن ، ويشعر بالنعمة والمحنة ، والرخاء والشدة ، يحس بالمرض والصحة ، والغنى والفقر ولكنه يؤمن بالله إيماناً كاملاً يحول بينه وبين مجازاة النفس

اعلم أخي علما يجرى منك مجرى الدم أن العارف بالله حقا يومياته على هذا الأساس ، وحياته كلها على هذا الضوء من اليقين . ولذلك هو في راحة من نفسه رضاء منه بقضاء الله وقدره خيره وشره . أعاذنا الله وإياكم من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

العارف بالله سجين إرادة الله — أنفاسه شهقات وزفرات ، ونبضه ضربات ومضاربات ، فبالله عليكم احثوا التراب على وجوه الأدعياء ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . العارف بالله شعوره بضغفه ، وإحساسه بفقصه لا بدع له مجالا للادعاء حيث هو الفقير إلى الله في كل لحظة من لحظات حياته ، المفتقر إليه سبحانه في كل طرفة عين . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى

اللَّهُ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١﴾ ومن هنا نعلم معنى حديث رسول الله ﷺ :
 « الْإِيمَانُ نِصْفُهُ شُكْرٌ . وَنِصْفُهُ صَبْرٌ » أو كما قال حيث الشعور بالضعف ،
 والإحساس بالنقص يفقد المؤمن — الكامل الإيمان بالله — رؤية النفس بشيء من
 الاستحقاق ، والجدارة ، ويفقده أيضاً صفة الأناية التي بمقتضاها يكون الفرع
 والجزع . ومن كان هذا شأنه إذا أصابه السراء شكر الله ، وإذا أصابه الضراء
 صبر لله . فهو بين الشكر والصبر . يذهب ويحییء ويتقلب ويتبصر ﴿٢﴾ وَقَلِيلٌ مِّنْ
 عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿٣﴾ ، ﴿٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ، وقد
 علمت أخى أن المؤمن الحق ينظر إلى كل آية يتلوها أو يسمعها فيطبقها على
 نفسه لعلمه وبقينه بأنه هو المخاطب ، وهو المقصود أولاً وآخراً ؛ ولذا نجده في شغل
 عن غيره اشتغالاً منه بعيوبه ونقائصه . قال رسول الله ﷺ : « العاقل من
 اشتغل بعيوب نفسه عن عيوب الآخرين . فطوى لمن شغله عيبه عن عيوب
 الناس » أو كما قال . ولذا فإن المؤمن الحق حين يقرأ قوله سبحانه وتعالى :
 ﴿٦﴾ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً ﴿٧﴾ يقف عند فهم هذه الآية وتطبيقها على نفسه —
 ولذا ينكر عليها كل قوة محسوسة ، وكل عمل صادر منها ، ويتجاهل عموماً
 وخصوصاً كل صفاتها وأفعالها مبادراً إلى نسبة الفضل لله في كل ما تتصور
 النفس ، وتتنيل من مظاهر القوة والفضل ﴿٨﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴿٩﴾ الرجَّاعين
 إليه بنسبة الفضل والرحمة إليه ﴿١٠﴾ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿١١﴾ العاملين على تجريد
 النفس من صفات المشاركة لله في صفات ربوبيته . المتطهرين من الرعونات
 والشهوات . فالتوبة رجوع إلى الله بالقلب . والتطهر رجوع إليه بالجوارح وصالح
 الأعمال حيث الجمع بين صفة القلب وصفة الجوارح من علامات صدق
 العبودية . فالقلب هو الملك . والأعضاء هى الجنود والأدوات . فلا ملك بلا
 جنود . ولا جنود بلا ملك . وفقنا الله وإياكم إلى ما يحب ويرضى . وتولانا برحمته .
 أخى :

العارف بالله : أساس حياته على قوله تعالى : ﴿١٢﴾ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً ﴿١٣﴾
 ولذلك لا تغره المعرفة ؛ لأنه يزداد بها علماً بضعفه . وكلما ازدادت معرفته
 للحق . ازداد علماً ومعرفة بنفسه . وكلما ازداد علماً ومعرفة بنفسه ازداد تقرباً إلى
 الله بفقره وافتقاره إليه .

العارف بالله لا يحب أن يجمع الناس عليه ، بل غايته أن يجمع العبد على ربه ، فهو كالجندي المجهول يقذف قذيفته لتصل إلى هدفه وسرعان ما يختفى ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ فالله سبحانه هدفه ومبتغاه ولا شيء في المكونات يصرفه عن خالقها . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .
أخى :

عَلِمَ الله الحق أنى مهما بالغت لكم في ذكر ما علمت وبيان ما لمست لن أصل بكم إلى حد !!! حيث لا نهاية للعلم ، ولا آخر للهدى ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ ولما كان الأمر كذلك فالكيس من عمل بما علم ، وصدق فيما عمل . قال رسول الله ﷺ « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » أو كما قال . وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ فالحمد لله . والشكر له . اتقوا الله . واستغفروه يغفر لكم ﴿ وَيُخَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ .

والسلام عليكم ورحمة الله

* * * *